

البذور الأولى للمدرسة القيروانية في علمي الحديث والفقه من خلال كتب الطبقات

د. جمعة شيخة - (تونس)

المقدمة : ما إن أفلعت بنا سفينة الأندلسيات منذ بداية السبعينات - وفي نطاق التخصص الجامعي الضيق - ويمت وجهتها نحو الفردوس المفقود، حتى قل اهتمامنا - مع الأسف الشديد - بالمواضيع العلمية الهامة التي يطرحها مركز الدراسات الإسلامية وعلى رأسه زميلنا الفاضل الأستاذ الدكتور بولبابة حسين.

لكن ضربا من الكتب التراثية شغفنا به ونحن مازلنا في سنوات الأخذ الأولى بالجامعة، وازدادت رغبتنا فيه كلما تقدمت بنا السن ونعني بهذا الضرب : كتب الطبقات.

واهتمامنا بهذه المؤلفات يرجع بالدرجة الأولى إلى ما لهذه الكتب بصفة عامة والتي وضعها أصحابها في القرون الإسلامية الأولى بصفة خاصة من أهمية في دراسة جوانب عديدة مهمة من حياة المجتمعات العربية، ذلك أن مؤلفي التاريخ الإسلامي القدامى وقفوا جل كتبهم على حياة الخليفة والأمير والوزير يضبط تاريخ ولادتهم وتوليبتهم ووفاتهم وتسجيل الأحداث والوقائع في عهدهم زمن السلم والحرب. أما حياة

المجتمع اليومية بمختلف جوانبها فلا تظهر في هذه الكتب إلا عرضاً مما أحدث ثغرة لا يستهان بها في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

وقد قامت كتب الطبقات - عن قصد أو عن غير قصد - بسد هذه الثغرة إن قليلاً أو كثيراً، عن طريق ما تقدمه لنا من تراجم لعلماء وفقهاء وزهاد ومتصوفة. وهي رغم ما يبدو عليها من الجفاف في مادتها والقصور عن أن تشفي الغليل في موضوعها، تمثل أحسن مصدر لدراسة شخصية هؤلاء من جوانبها المختلفة وأمهر مصور للحياة اليومية في المجتمع الذي نشؤوا فيه. وإذا كانت كتب التاريخ قد قدمت لنا الهيكل العظمي للتاريخ الإسلامي، فكتب الطبقات قد كسته لحماً ودماً. فهؤلاء العلماء وغيرهم من المترجم لهم نراهم، من خلال كتب الطبقات، في مكانين هامين :

أ - في الأسواق يتعاملون مع مختلف شرائح المجتمع فتبرز لنا جوانب من حياة هذه الشرائح في مأكلاتهم وملبسهم، في عملهم ومعاملاتهم، في سلوكهم وأخلاقهم.

ب - في المسجد يدرسون ويتناقشون، يفسرون ويحللون ولم لا يؤلفون ؟

فتبدو لنا جوانب هامة من الحياة الفكرية والعلمية واضحة جلية. وقد رأينا لما وجهت إلينا الدعوة الكريمة للمشاركة في الملتقى العلمي الرابع لمركز الدراسات الإسلامية بالقيروان أن ننظر في البذور الأولى التي غرست بالمدرسة القيروانية في مجالين هامين من العلوم الدينية وهما الفقه والحديث، وذلك من خلال تتبعنا لتراجم العلماء في ثلاثة كتب هي :

(1) طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب التميمي القيرواني
(ت333هـ/944م)

(2) علماء إفريقية لمحمد بن الحارث الخشني (ت في النصف
الثاني من القرن 4هـ/10م)

(3) رياض النفوس لأبي بكر عبد الله المالكي (عاش في صميم
القرن 5هـ/10م)

وبصفة عامة قسمت هذه الكتب الثلاثة من ترجمت لهم من حيث
المذهب إلى : مالكية، وشافعية وعراقيين (والمقصود الحنفية والمعتزلة)
ومتشرق⁽¹⁾. (والمقصود : شيعة).

ومن حيث المنهج : أصحاب حفظ وهم الأغلبية وأصحاب نظر وهم
أقلية.

وفي كتاب أبي العرب، ولمزيد التفصيل، يصنف العلماء إلى
صنفين كبيرين :

أ - محدثون : وجل من ترجم لهم من هذا الصنف، ويستعمل في
تراجمهم العبارات التالية : محدث، كثير الحديث، كثير الرواية حافظ
للحديث، عالم بالحديث وعلمه ورجاله، ممن رحل في الحديث ثقة في
حديثه، ضعيف الحديث.

ب - فقهاء : وعددهم أقل بكثير من الصنف الأول، ويستعمل أبو
العرب العبارات التالية : فقيه، إمام في الفقه، فقيه عالم بالمناظرة عالم
بالفقه والكلام والذب والرد على الفرق.

(1) انظر باب من تشرق في كتاب الخشني ص 291.

وينعت أبو العرب عادة هذين الصنفين ممن ترجم لهم بالورع والصلاح والتقوى.

أما الخشني فنجد أكثر إحكاما وتفريعا في تصنيفه لمن ترجم لهم. فهم عنده على أربعة عشر صنفا : مالكي، حنفي، معتزلي، محدث، فقيه، قاض، ممتحن، ناقل، مناظر متشرق (شيعة)، عابد، زاهد، مرابط، من أهل الأهواء.

ونجد من بين 161 ترجمة في كتاب الخشني 29 محدثا و25 فقيها من بينهم ستة جمعوا بين الفقه والحديث.

أما المالكي فقد وزع من ترجم لهم ما بين : محدث ومتعبد وزاهد، وقاض، وفقيه، وأديب، ومالكي، وغاز، ومن بين 270 ترجمة هناك 100 محدثا و50 فقيها. وحوالي الثلث من الصنفين كان يجمع بين الحديث والفقه.

والمتمتع في تراجم هؤلاء العلماء ممن نعتوا بأنهم من المحدثين والفقهاء يمكن أن يخرج بالملاحظة الأساسية، التالية : إن الحركة الفكرية بإفريقية وعاصمتها القيروان خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة كانت مقامة بالدرجة الأولى على علمي الحديث والفقه، فأكمل النعوت التي يصف بها أصحاب كتب الطبقات من ترجموا لهم هما : محدث، فقيه.

وبالدرجة الثانية على العلوم اللغوية باعتبارها وسيلة لفهم القرآن والحديث. أما الأدب فهو في درجة ثالثة، ولا يقع الإهتمام به في كتب الطبقات إلا عند ذكر بعض المواعظ والعبر نثرا، وبعض القطع في الزهد والتصوف شعرا.

ويبدو لنا من خلال تصفحنا لهذه المصادر الثلاثة أن هذه الحركة الفكرية في مظهرها الأول مرت بالمراحل التالية :

1) مرحلة أولى : كانت الحركة الفكرية فيه منصبة على الحديث. وكان الحديث يؤخذ مباشرة عن الصحابة والتابعين ممن دخل إفريقيا، ومن هؤلاء عبد الله ابن عمر بن الخطاب، ذكر له 2630 حديثاً أخرج له الشيخان 280 حديثاً، اتفقا على 168، وانفرد البخاري بـ 81 حديثاً ومسلم بـ 31 حديثاً (ت 74 هـ/693م)⁽¹⁾. وعبد الله بن عمرو بن العاص، وكان قد أذن له في كتابة الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وجمع ذلك في صحيفة سميت "الصدقة" (ت ما بين 63 هـ/682م و73 هـ/692م).⁽²⁾ وحمزة بن عمرو الأسلمي له تسعة أحاديث روى مسلم منها حديثاً واحداً (ت 61/680م)⁽³⁾. وسلمة بن الأكوع روى له عن الرسول 77 حديثاً، اتفق الشيخان منها على 16، وانفرد البخاري بـ 5 ومسلم بـ 9 (ت 64 هـ/683م)⁽⁴⁾. وبلال بن الحارث المرني (ت 60 هـ/679م)⁽⁵⁾ وكعب ابن عمر له حديث مطول أخرجه مسلم (ت 55 هـ/674م)⁽⁶⁾، وعبد الله ابن عباس بن عبد المطلب ذكر له 1660 حديثاً أخرج له الشيخان 234 حديثاً اتفقا على 75، انفرد البخاري بـ 110، ومسلم بـ 49 (ت 68 هـ/687م)⁽⁷⁾ وعبد الله بن الزبير (قتل 73 هـ/692م)⁽⁸⁾. وعبد الرحمان بن أبي بكر الصديق (ت 53 هـ/672م

(1) أبو العرب ص 73.

(2) أبو العرب ص 73.

(3) أبو العرب ص 74.

(4) أبو العرب ص 74.

(5) أبو العرب ص 74.

(6) أبو العرب ص 74.

(7) أبو العرب ص 74.

(8) أبو العرب ص 75.

أو 59 هـ/678م⁽¹⁾ وربيعه بن عباد الديلي وزيد بن الحارث الصدائي، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ومعاوية بن حديج وبسر بن أرطاة وأبو زمعة البلوي.

أما التابعون الذين دخلوا إفريقية، وواصلوا نشر أحاديث الرسول بها فقد ذكر منهم أبو العرب 33 تابعيا⁽²⁾. وقد جاء بعد هؤلاء في مرحلة ثانية عشرة من التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز ليفقهوا أهل إفريقية. وكلمة "ليفقهوا" لها دلالتها بالنسبة إلى التطور الذي سيحدث في صلب التعليم الديني بإفريقية.

وفي هذه الفترة كان الاهتمام منصبا على الحديث، فأغلب الصحابة والتابعين الذين جاءوا إلى إفريقية اهتموا بالسنّة النبوية، ومن هنا كانت الحياة الفكرية في النصف الأول من القرن الثاني مدارها أحاديث الرسول ورواتها. والجدل كان محتدما بين العلماء في صحة الأحاديث أو ضعفها.

وفي ثقة الرواة وعدم ثقتهم لذلك يكثر في هذه التراجم فعل : حدث، عوض درس أو علم أو ناظر ويكثر نعت : ثقة، غير ثقة، ضعيف الحديث إلخ... كما تكثر عبارة : عالم بالحديث والرجال، وعالم بالحديث وعلمه⁽³⁾.

(2) مرحلة ثانية : وهي المرحلة التي شد فيها أهل إفريقية الرحال إلى المشرق وذلك لسببين أساسيين :

(1) أبو العرب ص 75.

(2) أبو العرب ص 79-83.

(3) أبو العرب ص 244.

أ - موت الصحابة والتابعين الذين كانوا يفدون على إفريقية قصد الجهاد أو نشر الدين الحنيف، وأقاموا بها مدة قد تطول وقد تقصر، ومنهم من بقي إلى أن توفي بإفريقية.

ب - بروز أئمة كبار بالمشرق العربي أمثال مالك وأبي حنيفة ثم تلامذة هاذين الإمامين الجليلين من بعدهما. وكان لتنتقل هؤلاء الأفارقة في عواصم العلم بالمشرق عاملا هاما في إثراء الحركة الفكرية في كامل أنحاء العالم العربي الإسلامي، فهؤلاء الأفارقة كانوا يبذلون بمصر ثم ينتقلون إلى المدينة، ثم إلى الشام فالعراق أو العكس. وفي كل مرحلة كانوا يأخذون ويعطون فكان التلاقح المثمر بين أهم عواصم العلم في ذلك الوقت، والأمثلة على من رحلوا من علماء إفريقية إلى المشرق عديدة، وعلى رأسهم أسد بن فرات، وسحنون.

ومع هؤلاء العلماء الذين رحلوا دخل الموطأ لمالك والمختلطة لابن القاسم وكانت المختلطة متداولة في عهد سحنون كما يؤكد على ذلك الخشني. ويمكن أن نضيف إلى الكتابين السابقين كتاب الواضحة للأندلسي ابن حبيب (180-853/239/796). وكان قد رحل إلى المدينة والتقى بزعماء المالكية، ولما رجع إلى الأندلس صنف الواضحة.

3) مرحلة ثالثة : وهي المرحلة التي أصبحت فيها إفريقية بعاصمتها القيروان وبعلمائها من أمثال أسد، وسحنون تنتج علماء، وبذلك أصبحت لها شخصيتها الثقافية بتأليف لها أهميتها وكتب علماء إفريقية لئن كانت مادتها مشرقية، فهي لا تخلو من طابع محلي إفريقي.

لقد انكب العلماء بهذه الربوع على الحديث جمعا وحفظا، نقدا وتجريحا تدريسا وتأليفا. ومما يدل على اعتنائهم بهذا الجانب ما قاموا به من ضبط وتدقيق في أحاديث بدت لهم غريبة كسنة أحاديث لعبد الرحمان

بن زياد قال البهلول : سمعت سفيان الثوري (ت161هـ/777م بالبصرة) يقول : جاعنا عبد الرحمان بن زياد الإفريقي بستة أحاديث يرفعها إلى النبي (صلعم) لم أسمع أحدا يرفعها :

- حديث أمهات الأولاد.

- حديث الصدائي حين أذن قبل بلال، فأراد بلال أن يقيم. فقال النبي عليه السلام "إن أخا صداء أذن، ومن أذن فهو يقيم".

- حديث من رفع رأسه من آخر سجدة واستوى جالسا، فقد تمت صلاته وإن أحدث.

- وحديث قال النبي عليه السلام "لا خير في من لم يكن عالما أو متعلما"

- وحديث قال النبي عليه السلام : "العلم ثلاثة وما سوى ذلك فضل آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة (1).

وينضاف إلى ذلك حديث السجلات للحبلى (2) وحديث الماء المنبعث من أصابع الرسول للصدائي (3). وتتعلق هذه الأحاديث بفضل إفريقية وبيع بعض معجزات الرسول. وقد علق ابن ناجي في المعالم على هذه الأحاديث بقوله : "سمعت شيخنا أبا الفضل أبا القاسم بن أحمد البرزلي يقول عن شيخه وشيخنا أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي : إنه يغلب على الظن أن هذه الأحاديث موضوعة وقصدوا بوضعها تحبيبها

(1) أبو العرب ص 6-95 الخشني 129.

(2) المالكي 64/1.

(3) ن-م : 56/1.

(أي إفريقية) لساكنيها. ويدلك على هذا أن فيها رونق الأحاديث الموضوعية. وكذلك ينقل في فضل رادس⁽¹⁾.

ومن هذا القبيل ما رواه أبو العرب في ترجمة محمد بن رزين قال : "رأى سحنون كتابا مع بعض الطلبة، فيه حديث عن ابن رزين عن عبد الله بن نافع الصائغ، فأرسل في طلب ابن رزين فأتى به إليه، فقال له : أنت سمعت من ابن نافع فقال له : أصلحك الله إنما سمعت من ابن نافع الزبيري (ت216هـ/831م) فقال له لم دلت، أو كما قال. ثم قال سحنون : ماذا يخرج بعدي من العقارب إن مت (قال أبو العرب بن تميم : وذلك أن ابن رزين لم يدرك ابن نافع الصائغ وإنما أدرك ابن نافع الزبيري ذلك أنه مات قبل أن يدخل ابن رزين (أي إفريقية ؟) فلهذا أنكر سحنون عليه⁽²⁾.

وذكر المالكي أن عبد الله بن عمرو بن العاص أغرب بحديث لم أعلم رواه عنه غير ربيعة بن سيف، قال توفي ولد "لعياض بن عقبة الفهري واشتد وجده عليه، فقال له عبد الله بن عمرو بن العاص : ألا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من مسلم يموت يوم الجمعة إلا وقى فتاني القبر⁽³⁾.

وهذا التقسيم الثلاثي هو تقسيم منهجي لا يعني البتة انفصالا وقطيعة بين المراحل الثلاث. فالتواصل بين الشرق والغرب في نطاق الدولة الإسلامية متواصل وخاصة عن طريق فريضة الحج.

(1) المعالم : 4/1-5.

(2) أبو العرب ص 205.

(3) المالكي ح I ص 5-84.

وتمكننا كتب الطبقات من التعرف على أغلب ما كان متداولاً من مؤلفات في ميداني علم الحديث والفقه بالمشرق والمغرب، وكيفية انتقالها في الأمصار.

وعلى رأس كتب الحديث نجد كتاب الموطأ لمالك : أول من أدخله إلى المغرب علي بن زياد التونسي⁽¹⁾. وفسر قول مالك فيه، ولم يكن أهل إفريقية يعرفونه ثم أتى به أسد بن الفرات (ت212هـ/827م) بعد رحلته إلى الحجاز والعراق⁽²⁾. كما تذكر كتب الطبقات أن أبا محمد عبد العزيز بن يحيى المدني الهاشمي لما قدم إفريقية سنة (225هـ/839م) أملى الموطأ من حفظه⁽³⁾.

ومن المعلوم أن الموطآت المعروفة عن مالك إحدى عشرة، معناها متقارب والمستعمل منها أربعة : موطأ يحيى بن يحيى الليثي، وموطأ ابن بكير، وموطأ مصعب، وموطأ بان وهب. وهذا الأخير هو الذي انتشر بإفريقية والأندلس وبدرجة ثانية موطأ الليثي. وقد قام القاسبي بتلخيصه وأورد 520 حديثاً معتمداً في ذلك على رواية ابن القاسم⁽⁴⁾.

ومن كتب الحديث التي دخلت إفريقية الجامع الكبير والجامع الوسط لسفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث. أدخلهما علي بن زياد⁽⁵⁾ في مرحلة أولى. كما قام بإدخالهما أبو خارجة عنيسة بن خارجة الغافقي

(1) المالكي : 234/1.

(2) أبو العرب 163.

(3) أبو العرب ص 158.

(4) كشف الظنون 1908/2.

(5) أبو العرب 126.

(ت210هـ/825م) من سكان حصن ينفا قرب صفاقس في مرحلة ثانية⁽¹⁾. ونلاحظ أن كتاب الجامع في الرأي لسفيان لم يقع إدخاله إلى إفريقية على الأقل في هذه المرحلة مما يدل على توجه معين من أهل إفريقية تحت تأثير المذهب المالكي.

وفي كتب الطبقات ذكر عابر لمؤلفات أخرى في الحديث كمسند بشر بن أبي أرطاة : صحابي متشيع لمعاوية (ت 86 هـ/705م)⁽²⁾ ومسند أبي عبد الرحمن أحمد النسائي (ت 303هـ/915م) ويذكر باسمه "المجتبى" وهو سنن النسائي : أحد أصول الحديث المعتمدة عند أهل السنة⁽³⁾. ومسند محمد بن سنجر⁽⁴⁾، ومصنفات أبي داود ومسلم⁽⁵⁾ وصحيح البخاري ويبدو أن الأفارقة اتصلوا بشعبة بن الحجاج ابن الورد (ت 160هـ/776م) وأخذوا عنه كتابه "الغرائب في الحديث".

وفي الحديث لئن كانت رواية الإفريقيين عن المشاركة هي الغالبة وهذا أمر طبيعي، فإن هناك بعض المشاركة الذين رووا عن الإفريقيين كرواية ابن الجهم في كتاب "الجزية" عن البهلول (ت 180 هـ/796م). ورواية سفيان الثوري عن عبد الرحمن بن زياد⁽⁶⁾.

(1) أبو العرب 7-126.

(2) أبو العرب 76.

(3) المالكي 1/115.

(4) المالكي 1/78، 80.

(5) المالكي 1/83.

(6) المالكي 1/200.

وفي علم الفقه وفروعه تذكر كتب الطبقات المرات العديدة كتاب الجامع لابن وهب تلميذ مالك. وهو من أمهات كتب الفقه الإسلامي⁽¹⁾. ويبدو أن ما تورده هذه المصادر من كتب منسوبة إلى ابن وهب إنما هي أبواب من هذا الكتاب : ككتابي البيعة وكتاب المغازي⁽²⁾ وكتاب الصمت⁽³⁾. (طبع ضمن القطعة التي نشرها من الجامع المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة 1939)، وكتاب الأهوال نقله إلى الإفريقية أبو محمد عون بن يوسف الخزاعي (ت 239هـ/853م) عن طريق موسى بن منير الأندلسي وكانت للخزاعي هذا رحلة إلى المشرق. فإذا قال حدثنا فلان فهو سماع، وإذا قال : أخبرنا فلان فهي إجازة⁽⁴⁾. وتذكر هذه المصادر لابن وهب كتاب الزهد نشره يحيى بن عمر بإفريقية. وكان هذا الكتاب معروفا في عهد سحنون. وهو من الكتب التي تؤثر فيه عند سماعها إلى حدّ البكاء⁽⁵⁾. وقد ألف الأفارقة والأندلسيون مجموعة من الكتب بهذا العنوان سنذكرها في باب مؤلفات الأفارقة.

ومن كتب المشاركة دخل إلى إفريقية كتاب أشهب (ت 204هـ/819م). وكان كتابا هذين الرجلين - وهما من أصحاب مالك - يدرسان بالقيروان، اعتنى بهما أبو محمد عبد الله المعروف بالغيمي الفخار (ت 316هـ/928) ⁽⁶⁾. كما كانت كتب ابن دينار وابن كنانة

(1) المالكي 373/1.

(2) المالكي 366-7/1.

(3) المالكي 373/1.

(4) المالكي 385-1.

(5) المالكي 366/1-212/2.

(6) المالكي 190/2.

والمغيرة في الفقه معروفة ومتداولة بإفريقية أدخلها أبو عبد الله محمد ابن
يسطام بن رجاء (ت313هـ/925م). وكان يغرب في مسائلها (1).

وهناك كتاب عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت 211 هـ/826) في اختلاف الناس في الفقه أدخله أبو عبد الله محمد بن أبي المنصور الأندلسي. وكان أخذه عن الديري عن عبد الرزاق بصنعاء (2). وعبد الرزاق هذا هو أحد الأربعة من أصحاب السنن الموجودة قبل الصحيحين وهي : سنن ابن جريح وسنن عبد الملك بن عبد العزيز وسنن ابن إسحاق (وهو غير كتاب السير) ومصنف عبد الرزاق.

كما كانت الواضحة لابن حبيب معروفة بالقيروان وكان أبو عمر يوسف بن أبي يحيى المغامي الأندلسي (ت288هـ/900م) يدرسها بالقيروان (3). وكان كتاب الشافعي في الفقه متداولاً بإفريقية (4)، وكان كتاب ابن الجهم في الجزية أحد مصادر المالكي في الرياض (5).

وكان من شدة اعتناء الأفارقة ببعض هذه الكتب أن أبا عبد الله بن نظيف البزاز الفقيه (ت355هـ/965م) كان يحفظ كتاب معاني القرآن للزجاج النحوي (ت923/311م) (6). وكان أبو الوليد عباس بن الوليد

(1) الخشاني 168.

(2) كشف الظنون 1008/2.

(3) أبو العرب 162.

(4) المالكي 132/1.

(5) الخشني 150.

(6) المالكي 467/2.

الفارسي (ت218هـ/833م) يحفظ كتاب أبي الأحوص سلام ابن سليم الحنفي (ت179هـ/795م) وفيه حوالي 4 آلاف حديث⁽¹⁾.

ولم يكتف الأفرقة بنقل كتب المشاركة وحفظها ودراستها، بل تجاوزوا هذه المرحلة إلى التأليف وتمدنا كتب الطبقات بمجموعة من مؤلفاتهم في ميدان الحديث والفقه:

ومن المؤلفات الأوائل كتاب خالد بن أبي عمران التجيبي (ت127هـ/744م) وكانت له رحلة سمع فيها من القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق ومن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وهناك الأسدية لأسد بن الفرات : وكانت له رحلة لقي فيها مالكا بالمدينة وأصحاب أبي حنيفة بالعراق. وانتصب مؤلف الأسدية يدرسها بالقيروان. وكانت في أبواب تعرف بالكتب. فقد ذكر المالكي أن أسدا كان يدرس كتاب الأشربة وهو أحد أبواب الأسدية وأخطأ محققا كتاب رياض النفوس إذ اعتبراه كتاب الشرب لمحمد بن الحسن الشيباني⁽²⁾.

وهناك المدونة لسحنون في فروع المالكية، وغطت على الأسدية⁽³⁾. وقد يكون سحنون أخذ عنوان كتابه عن ابن القاسم (ت191هـ/806م) الذي وضع مدونته عن سماعه من مالك. وللبهلول بن راشد ديوان في الفقه المالكي⁽⁴⁾. وعلى عكس ذلك نجد كتاب عبد الله بن

(1) المالكي 248/1.

(2) المالكي 267/1.

(3) الخشني 231.

(4) المالكي 20/1.

المغيرة الكوفي وكان على مذهب أهل العراق في شرب النبيذ. ومع ذلك فقد اعتبره أبو العرب ثقة في حديثه (1).

ومؤلفات الأفارقة على نوعين :

1) مؤلفات يعتمد فيها على الرواية والحفظ. ككتاب ابن عبدوس الذي قال فيه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : هذا كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه، وكتاب ابن سحنون في المذهب المالكي، وقد قال فيه ابن عبد الحكم : هذا كتاب رجل سبى في العلم سبى (2). وكتاب أدب القاضي لابن سحنون وفيه أسئلة حبيب المظالم لسحنون (3).

ومن هذا الصنف من الكتب نذكر كتب الطبقات مناسك الحج لسحنون أو مختصر المناسك، وكتاب الصرف لأحمد ابن سليمان في المعاملات (4). (هناك كتاب الصرف أحد أبواب المدونة) وكتاب الطهارة لابن اللباد (5).

وهناك كتب يحيى بن عمر كالصراط (الميزان) وكتاب النظر إلى الله يوم القيامة، وكتاب النهي عن حضور مسجد السبت بالقيروان (6). وهذا المسجد كانت تقرأ فيه كتب الرقة : وهي كتب المواعيط، وفيها ألف إسماعيل ابن رباح كتابه المواعيط (7). وهناك كتاب مجالس سليمان بن

(1) أبو العرب 162.

(2) الخشني 129.

(3) الخشني : 178.

(4) المالكي 507/1.

(5) أبو العرب 77.

(6) المالكي 493/1، 287/2.

(7) المالكي 34/1.

سالم⁽¹⁾. ولعلها المعروفة بالكتب السليمانية وكتاب الفرائض لأبي علي شقران ابن علي الفرصي⁽²⁾. وكتاب تجديد الإيمان في شرائع الإسلام المعروف بكتاب المعجزات لأبي جعفر القصري (ت322هـ/933)⁽³⁾. وكتاب الأحمية وما يجب على سكان الحصون أن يعلموا لأبي الفضل يوسف بن مسرور. وكان سكان الحصون يبغضونه لذلك ويؤذونه.

2 مؤلفات يعتمد فيها على الدراية والنظر، فلابن عبدوس كتاب المجموعة في الفقه المالكي كان فيه عزيز الاستنباط حسب الخشني⁽⁴⁾. وكتاب التوحيد لبشر المريسي (معتزلي) وكان أسد يكفر بشرا، ويتكلم فيه بأقبح الكلام. وبلغه أنه وضع كتابا سماه بكتاب التوحيد. فقال : أو جهل الناس التوحيد حتى يضع لهم بشر كتابا فيه هذه نبوة ادعاها⁽⁵⁾.

وهناك كتب سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء كان يقول بخلق القرآن وله كتاب مشكل القرآن، سلخه - حسب عبارة المالكي استقصا - من كتاب مشكل القرآن لقطرب النحوي. وله كتاب في أعلام النبوة. وله كتب على مذهبه في خلق القرآن⁽⁶⁾.

ومن هذا الصنف من الكتب هناك كتاب الاقتباس للخشني في الجدل والمناظرة. وكتب لأبي عثمان سعيد بن محمد الحداد لم تحدد عناوينها. وكان يحيى لأبي عثمان سعيد بن محمد الحداد لم تحدد عناوينها. وكان

1) المالكي 199/1.

2) المالكي 312/1.

3) المالكي 198/2.

4) الخشني 182.

5) المالكي 264/1.

6) الخشني 219.

يحي بن عمر في حاجة إلى أمثال أبي عثمان أحمد بن موسى ليفهمه كتب ابن الحداد⁽¹⁾. وكتاب الحجة في الشاهد واليمين (4 أجزاء) لأبي محمد بن علي البجلي الشافعي وله الرد على الشوكية وكان ممن انتحل النظر⁽²⁾.

وللأفارقة ميل إلى تقليد المشاركة في بعض عناوين كتبهم. ولنا خير مثال على ذلك كتاب الزهد لابن وهب فقد وضع سحنون كتابا بهذا العنوان⁽³⁾. وألف يمن بن رزق الأندلسي كتاب الزهد (القرن 3هـ/9م). وكتب أبو يزيد عبد الملك بن أبي كريمة الأنصاري من علماء تونس (ت204هـ/906م) كتاب الزهد.

وقد رأينا أن سحنون يسمي كتابه المدونة على غرار ابن القاسم وابن أبي عصفور يكتب مشكل القرآن ما فعل قطرب النحوي. وأحمد بن أحمد بن زياد يؤلف أحكام القرآن مثل الشافعي (ت204هـ/906م)⁽⁴⁾.

ولكن هذا التقليد لم يمنع بعضهم من كتاب ردود على بعض علماء المشرق. فليحي بن عمر كتاب في الرد على الشافعي⁽⁵⁾. ولأبي عمر يوسف بن أبي يحيى المغامي الأندلسي (ت288هـ/900م) رد في 10 أجزاء على الشافعي أيضا.

وكان بعض علماء إفريقية في مستوى كبار علماء المشرق في التخريج وحل المسائل المعقدة. قال محمد بن مسرور النجار : جلست

(1) الخشني 219.

(2) الخشني 213.

(3) المالكي 2/451.

(4) الخشني 168.

(5) الخشني 131.

يوما إلى سعيد بن الحداد، فألقيت عليه مسألة معقدة مقفلة من كتاب وهب ابن عبد العزيز، فبدأ بتتزيلها وبالنظر فيها، فلم يزل يلخصها شيئا فشيئا حتى بلغ فيها إلى ما بلغ أشهب، فقلت أصبت يا أبا عثمان هكذا قال أشهب في كتابه فقال لي : لعل أشهب ما وضعها حتى تدبرها أياما ونظر فيها حينا. وقد أتيناك نحن بجوابها بنظر ساعة واحدة (1).

وهناك ضرب من الكتب برز فيه الأفارقة وهي كتب التراجم والطبقات والأخبار بصفة عامة وتذكر مصادرها منها : كتاب الطبقات لابن سحنون (2) والتعريف للخشني (3) وكتابي أبي العرب : رجال إفريقية وثقات الرجال وضعافهم (4). وكتاب فتوح إفريقية لعيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر (5). وكتاب أخبار الأنبياء لأبي عبد الملك المشنوني (معاصر لسحنون) (6). وكان أمراء بني الأغلب يرغبون في سماع هذا الكتاب في ليالي رمضان لغرابته، وكتاب دحمان بن معافي في الأخبار وكان مصدرا من مصادر الخشني (7)، وكتاب أبي بكر السوسي في التاريخ والأخبار (8)، ونسب الشيعة وأخبارهم لابن خيرون (9)،

(1) المالكي 66/2.

(2) المالكي 131/1، 167.

(3) الخشني 136.

(4) المالكي 33/2.

(5) الخشني 120.

(6) المالكي 401/1.

(7) الخشني 106.

(8) الخشني 15.

(9) الخشني 171.

وفضائل مالك أبي بكر محمد بن اللباد (ت333هـ/944م) وله كذلك كتاب الآثار والفضائل⁽¹⁾.

الخاتمة :

لا شك أن هذه البذور الأولى أثمرت مدرسة قيروانية مالكية الاتجاه، قوامها الرواية والنقل. وكان لزعمائها تخوف من استعمال العقل وإصدار الفتوى. وكانوا يتمسكون بتقليد السلف، والاكتفاء بما جاء عن كبار الشيوخ وخاصة مالكا وتلاميذه دون الميل إلى الاجتهاد.

ولقد ولدت المبالغة في هذا الاتجاه بعض الإيجابيات وبعض السلبيات.

ومن الإيجابيات هو هذه الوحدة المذهبية التي ميزت المغرب العربي عن المشرق. فالمسلمون بشمال إفريقية والأندلس تمسكوا بمذهب مالك وبه تشبثوا. ولئن ظهرت بعض المذاهب الأخرى فلمدة معينة ثم زالت وتلاشت. وهذه الوحدة لا شك قللت نسبيا من الفتن والصراعات الداخلية وإن لم تقض عليها تماما.

أما السلبيات فأبرزها من جانب الاتجاه المعاكس للاتجاه المالكي، هو التسرع في الفتيا والتجروؤ على الحدود من طرف بعض العراقيين الأحناف. وهذا السلوك يمكن أن نعتبره تطرفا من بعض الأحناف لمواجهة تطرف بعض أعلام المالكية. والأمثلة في كتب الطبقات متعددة قال أحمد بن أبي سليمان : أتى إلي رجلان منهم (أي من الصيارفة) فسألاني عن مسألة فقلت لهما "لا تحل فإنه ربا" فقال لي : فإن ابن

(1) المالكي 235/2.

الأشج (1) قال لنا : "أديروا بينكم ما شئتم من بيع حرام ثم تعالوا إلي أجعله لكم حلالاً" فقلت لهما "لا حول ولا قوة إلا بالله حرام حرام قوما عني".

وكان ابن الأشج هذا عراقياً. وكان إذا أراد أن يجوز الربا بين الناس يقول لأحدهم : خذ الهر فاجعل في عنقه خمسين دينار فإذا أخذ الهر المشتري له، وأقام عنده أياماً فامض إليه وقل له "عسى ذلك الهر ترده إلينا، فإن الفئران قد أكلونا" فيرده إليه. فكان هذا فعله مع الناس (2).

أما من الجانب المالكي فأبرزها هو تصرف بعض زعماء المذهب ومنظريه ومواقفهم الغربية من مخالفاتهم مما خلف كبتاً فكرياً لا يمكن تبريره. والأمثلة كثيرة في كتب الطبقات ولا شك أن هذا التصرف له جذوره. فمالك عندما راسله عبد الله بن فروخ يخبره بأنه ألف كلاماً في الرد على أهل البدع، خوفه وحذرته وشككه في قدرته على ذلك وقد حاول المالكي تبرير ذلك فقال أشفق مالك رضي الله عنه أن يكون ذلك سبباً لإظهار طريقة الجدل بإفريقية فأراد حسم الباب (3). وتمسك سحنون بهذا الاتجاه، فكان مناوئاً لكل من تحدثه نفسه باستعمال عقله في المسائل الدينية. وتدخل لتفريق من سمتهم كتب الطبقات بأهل الأهواء ممن كانوا يجتمعون بمسجد القيروان للجدل والنقاش (4). بل إن السجن كان ينتظر

(1) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن الأشج فقيه قيرواني عراقي المذهب ت286هـ/899م) المالكي 507/1.

(2) المصدر السابق.

(3) المالكي 177/1.

(4) المالكي 267/1.

من يجتمع بمسجد القيروان للجدل والنقاش⁽¹⁾. بل إن السجن كان ينتظر من يجتمع بهم بعد ذلك⁽²⁾. وصل به الأمر إلى تعذيب ابن أبي الجواد المخالف له في المذهب إلى الموت. وتمسك أصحابه بهذا الاتجاه فكانوا يرفضون السماع إلا ممن كان على مذهبهم. وقد أورد الخشني أن أبا العباس البياتي جاء لمالك بن عيسى القفصي، وقال له : حدثني بما يوافق مذهبي فقال : هذا رجل لا يحب أن يكون عالما⁽³⁾. وكان أبو خارجة عنبسة بن خارجة يقول لا تمر الليالي والأيام حتى تمحى كتب أبي حنيفة. ويضيف المالكي فكان ذلك، محاها الله عز وجل بسحنون⁽⁴⁾. ومن باب التنفير من علم أهل العراق يورد المالكي ما يلي : "وحدث أبو عبد الله محمد بن المبارك بن الزيات صاحب المظالم ابن طالب قال : كان يألفني رجل أطرابلسي، دون أصحابنا أيام سماعنا من سحنون، فرأيت معه كتباً قد محيت وكتب فيها قول أهل المدينة. قال : فكان يسمع معنا فيها. قال، فقلت له : ما قصة هذه الكتب ؟ قال : إني كنت أسمع قول أهل العراق، فرأيت في منامي كأني واقف في وسط غدير، وقد أصابني عطش شديد بلغ مني، فإذا شربت من الماء شربت دماً، ثم أملأ ركوتي بالماء، فإذا شربت منها شربت دماً فأمجه من فمي، ثم التفت إلى رجل كان مني على القرب فقلت له : اسقني الماء فإن العطش قد بلغ مني، فقال : أنت في الماء وتطلب من يسقيك ؟ فقلت له : إني إذا شربته صار في فمي دماً فقال لي : اذهب إلى الشيخ فهو يسقيك، قال : فمضيت إليه فأصبت الشيخ قاعداً ووجهه إلى القبلة، فقلت له لعل معك ماء فتسقينني، فقال لي : أنت

(1) الخشني 299.

(2) الخشني 228.

(3) الخشني 299.

(4) المالكي 241/1.

في الماء وتطلب من يسقيك ؟ فقلت له : إني إذا شربته صار دما في فمي، وجعلت أريه ذلك، فقال لي : هلم الإداوة التي معك في يدك، فناولته الإداوة فصل لي فيها ماء فشربته فرويت. فلما أصبحت ذهبت أسأل عن تأويل رؤيائي ف قيل : تطلب علما لا تنتفع به وسيبدلك الله تعالى به علما خيرا منه. فقلت في نفسي : ما هو إلا قول أهل العراق، فتركته وطلبت قول أهل المدينة من كل طريق ⁽¹⁾، ولقد وصل الأمر بأحدهم إلى تفضيل قول مالك على قول الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا من الجهل البين.

ومع ذلك فقد تخرج من هذه المدرسة القيروانية أمثال أبي عثمان سعيد بن الحداد، وابن حارث الخشني. وقد برهن هذا الأخير في كتابه علماء إفريقية - وهو المالكي المتمسك بمذهبه - بالترجمة لبعض العراقيين من أهل القيروان، على تسامح يليق بما اتسم به من توق للنظر وحرية في التفكير، لكن مع الأسف لم ينهج منهجه هذا من عاصره أو جاء بعده من مؤلفي كتب الطبقات فارتكبوا جناية كبرى في حق المدرسة العراقية الإفريقية⁽²⁾ ذلك أنه كانت بإفريقية مدرسة حنفية في الفقه لا تقل قيمة عن المدرسة المالكية إلا أنه قد غلبها أصحاب التراجم الإفريقيون مثل أبي العرب، والمالكي والقاضي عياض والدباغ وابن ناجي حقها فأغفلوا ذكر رجالها. .. حتى ذهب الظن ببعض الباحثين مذهب التهاون بمنزلة الفقهاء الحنفيين ودورهم في الحياة الفكرية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة بإفريقية⁽²⁾.

(1) المالكي 5/1-374.

(2) أبو المهلب هيثم بن سليمان القيسي، أدب القاضي والقضاء، تحقيق فرحات الدشراوي ص 7.